

أَحَقًّا قَالَ اللَّهُ؟

المحاضرة ١: مَا مِقْيَاسُ الْحَقِّ؟

أ.ر. سي. سرول

الْكَنِيسَةُ الْمَسِيحِيَّةُ مَوْجُودَةٌ عَلَى هَذَا الْكُوكَبِ مُنْذُ نَحْوِ أَلْفِي سَنَةٍ. وَطَوَالَ الْأَلْفِ وَثَمَانِمِائَةِ سَنَةٍ الْأُولَى مِنْ تَارِيخِ الْكَنِيسَةِ، تَحَلَّتِ الْكَنِيسَةُ فِعْلِيًّا بِيَقِينٍ عَامٍّ فِي مَصْدَرِهَا الرَّئِيسِيِّ لِلسُّلْطَةِ الْمَكْتُوبَةِ، وَهُوَ الْكِتَابُ الْمُقَدَّسُ. لَكِنْ فِي الْمَائَتِي سَنَةِ الْأَخِيرَةِ، مَرَّتِ الْكَنِيسَةُ بِأَزْمَةٍ غَيْرِ مَسْبُوقَةٍ، وَصَلَتْ حَتَّى إِلَى جُذُورِ حَيَاةِ الْكَنِيسَةِ، إِذْ تَعَلَّقَتْ بِالسُّؤَالِ: "هَلْ نَسْتَطِيعُ الْوُثُوقَ فِي الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ؟" وَوَجَّهَ الْكَثِيرُ جِدًّا مِنَ التَّقْدِ الْأَكَادِيمِيِّ وَالْعِلْمِيِّ لِمَجْدَارَةِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ بِالِثِقَةِ، خِلَالَ الْمَائَتِي سَنَةِ الْأَخِيرَةِ، حَتَّى إِنَّنَا عَائِنًا، لَيْسَ فَقَطْ فِي الْكَنِيسَةِ، بَلْ فِي الْمُجْتَمَعِ أَيْضًا، مِنْ فُقْدَانِ لِمَعْنَى السُّلْطَةِ بِرُمَّتِهِ. أَحَدُ الْأَهْوَتِيِّينَ، فِي مَطْلَعِ الْقَرْنِ الْعُشْرِينَ، أَدَلَّ بِهَذِهِ الْمُلَاحَظَةِ، وَقَالَ: "بَلَعَتْ أَيَّامُ التَّقْدِ الْكِتَابِي دُرُوتَهَا، لِدرَجَةِ أَنْنَا نَعِيشُ الْيَوْمَ فِتْرَةً مِنَ التَّشْوِيبِ الْكِتَابِيِّ الْمُتَعَمِّدِ".

وَكَي نَهْمَمَ أَزْمَةُ السُّلْطَةِ الْكِتَابِيَّةِ هَذِهِ، أَوْدُ أَنْ نَعُودَ بِالزَّمَنِ قَلِيلًا، لِعَمَلِ اسْتِظْلَاحِ تَارِيخِيٍّ، فَندَهَبُ أَوَّلًا إِلَى الْقَرْنِ السَّادِسِ عَشْرَ، إِلَى الْإِصْلَاحِ الْبِرُوتِسْتَانِيِّ. أَعْتَقِدُ أَنَّ غَالِبِيَّةَ الْمَسِيحِيِّينَ يُدْرِكُونَ أَنَّ الْقَضِيَّةَ الْجُوهْرِيَّةَ لِلِإِصْلَاحِ الْبِرُوتِسْتَانِيِّ فِي الْقَرْنِ السَّادِسِ عَشْرَ تَعَلَّقَتْ بِعَقِيدَةِ لُوثَرٍ عَنِ التَّبْرِيرِ بِالِإِيمَانِ وَحْدَهُ. وَكَانَ شِعَارُ الْإِصْلَاحِ، بِسَبَبِ أَنَّ التَّبْرِيرَ كَانَ نُقْطَةَ الْجَدَلِ الْمِحُورِيَّةِ، هُوَ الْعِبَارَةُ اللَّاتِينِيَّةُ الْبَسِيطَةُ: "سُولا فيدي"، وَمَعْنَاهَا "بِالِإِيمَانِ وَحْدَهُ". كَمَا سَمِعْنَا بِمَا فَعَلَهُ لُوثَرُ فِي عَشِيَّةِ عِيدِ جَمِيعِ الْقِدِّيسِينَ، حِينَ عَلَّقَ الْخَمْسَ وَالتَّسْعِينَ أُطْرُوحَةً عَلَى بَابِ الْكَنِيسَةِ فِي فَيْتِنْبُرْجِ (Wittenburg). ثُمَّ تَتَبَعَ الْإِنْتِشَارَ السَّرِيعَ لِلْجَدَلِ، مُتَجَاوِزًا حُدُودَ تِلْكَ الْجَامِعَةِ، وَمُكْتَسِحًا أَلْمَانِيَا كُلَّهَا، مُحَدِّثًا صَخْبًا شَدِيدًا، مُؤَدِّيًا فِي النِّهَايَةِ إِلَى أَكْبَرِ تَمَرِّقٍ يُمَكِّنُ تَصَوُّرَهُ فِي جَسَدِ الْمَسِيحِ. وَفِي الْوَاقِعِ، حِينَ عَزَلَ أَبَا رُومًا لُوثَرِي فِي النِّهَايَةِ، كَانَ الْمَرْسُومُ الْبَابَوِيِّ الَّذِي أَعْلَنَ عَزْلَهُ بِعُنْوَانِ إِكْسُورْجِ دُومِينِي "Exsurge Domine"، وَمَعْنَاهُ بِاللَّاتِينِيَّةِ "قُمْ يَا رَبُّ". (هَذِهِ أُولَى كَلِمَاتِ الْمَنْشُورِ الْبَابَوِيِّ)، مَتَّبِعًا بِهَذِهِ الْمُلَاحَظَةَ: "هُنَاكَ خِزِيرٌ بَرِّيٌّ طَلِيقٌ فِي كَرْمِكَ". وَكَانَ هَذَا الْخِزِيرُ الْبَرِّيُّ، فَطْعًا، هُوَ مَا زَيْنَ لُوثَرُ، الَّذِي قَلَبَ الْعَالَمَ رَأْسًا عَلَى عَقَبِ، بِسَبَبِ الْجَدَلِ حَوْلَ التَّبْرِيرِ بِالِإِيمَانِ وَحْدَهُ.

لَكِنْ مَا يُغْفَلُ عَنْهُ عَادَةً فِي هَذَا الْبِزَاحِ الَّذِي دَارَ فِي الْقَرْنِ السَّادِسِ عَشْرَ هُوَ جَدَلٌ آخَرٌ رُبَّمَا كَانَ مُهِمًّا لِحَيَاةِ الْكَنِيسَةِ وَلِلْأَجْيَالِ الْمُسْتَقْبَلِيَّةِ بِقَدْرِ أَهْمِيَّةِ الْجَدَلِ حَوْلَ التَّبْرِيرِ. وَفِي الْوَاقِعِ، يُحِبُّ مُورِّخُو الْكَنِيسَةِ اسْتِخْدَامَ تَفْرِقَةٍ قَدِيمَةٍ، رُبَّمَا كَانَ أَرِسْطُو أَوَّلَ مَنْ عَرَفَ بِهَا فِي أَثِينَا الْقَدِيمَةِ. وَهِيَ تَفْرِقَةٌ بَيْنَ مَا يُسَمَّى "الشَّكْلَ" وَ"المَادَّةَ". الْمَادَّةُ هِيَ جَوْهَرُ الشَّيْءِ. وَالشَّكْلُ، بِالتَّأَكِيدِ، هُوَ الْهَيْكَلُ الَّذِي يُسَكَّبُ أَوْ يُصَبُّ فِيهِ هَذَا الْجَوْهَرُ. إِذَنْ، نَحْنُ نُمَيِّزُ فِي الْفَلَسَفَةِ بَيْنَ الشَّكْلِي

وَالْمَادِّي. وَعِنْدَمَا يَنْظُرُ الْمُؤَرِّخُونَ إِلَى الْقُرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ، يَقُولُونَ: "كَانَتِ الْقَضِيَّةُ الْمَادِّيَّةُ لِلِإِصْلَاحِ، أَيَّ جَوْهَرٍ هَذَا الْجَدَلِ، هُوَ الْجَدَلُ حَوْلَ التَّبْرِيرِ". لَكِنَّ الْقَضِيَّةَ الشَّكْلِيَّةَ لِلْقُرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ، أَيَّ الْهَيْكَلِ الَّذِي دَارَ بِدَاخِلِهِ الْجَدَلُ بِرُمْتِهِ، هُوَ مَسْأَلَةُ السُّلْطَةِ النِّهَائِيَّةِ فِي حَيَاةِ الْكَنِيسَةِ وَالْمُؤْمِنِ.

بَعْدَمَا عَلَّقَ لُوْتَرُ أَظْرُوحَاتِهِ فِي فَيْتِنْبُرْجٍ، وَاسْتَرْعَى انْتِبَاهَ سُلْطَاتِ الْكَنِيسَةِ فِي رُومَا، وَوَرَّطَ نَفْسَهُ فِي مَازِقِ كَنِيْسِي كَبِيرٍ، اْتَمَسَ فُرْصَةً لِحَوْضِ نِقَاشٍ، بَلْ وَلِلْمُشَارَكَةِ فِيمَا كَانَ يُسَمَّى بِالنَّمَاظِرَاتِ الْعَامَّةِ. وَكَمَا تُوحِي كَلِمَةُ "مُنَاظِرَاتٍ"، كَانَ مَعْنَاهَا حَوْضٌ نِقَاشٍ لَاهُوتِيٍّ مَعَ مُمَثِّلِينَ مِنَ الْكَنِيسَةِ، لِمُحَاوَلَةِ التَّوَصُّلِ إِلَى حَلِّ سَلْمِيٍّ لِهَذِهِ الْقَضِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ تُهَدِّدُ وَحْدَةَ الْكَنِيسَةِ. وَبِالطَّبْعِ، خِلَالَ تِلْكَ الْفَتْرَةِ، حَاصٌ لُوْتَرُ مُنَاظِرَتَيْنِ مِنَ هَذَا التَّنوعِ، رُبَّمَا مَعَ أَعْظَمِ لَاهُوتِيَّيْنِ كَاثُولِيكِيَّيْنِ فِي الْقُرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ، مَارْتِنِ إِيك (Martin Eck) وَالْكَارْدِينَالِ كَاجِيْتَانَ (Cajetan).

لَكِنَّ الْمَثِيرَ لِلَاِهْتِمَامِ فِي هَذِهِ الْمُنَاظِرَاتِ، بِالنِّسْبَةِ إِلَيَّ عَلَى الْأَقْلِ، هُوَ أَنَّهُمْ بَيْنَمَا كَانُوا يُنَاقِشُونَ قَضِيَّةَ التَّبْرِيرِ، قَالَ هَذَانِ اللَّاهُوتِيَّانِ الْعَظِيمَانِ لِهَذَا الرَّاهِبِ الْأَوْعْشُطِيَّيْنِ مِنَ فَيْتِنْبُرْجٍ إِنَّ آرَاءَهُ فِي مَوْضُوعِ التَّبْرِيرِ تَخْتَلِفُ كَثِيرًا عَنِ بَعْضِ التَّعَالِيمِ الرَّسْمِيَّةِ لِلْكَنِيسَةِ. وَذَكَرَا لُوْتَرَ بِمَا عَلَّمَتْهُ الْكَنِيسَةُ فِي مَجَامِعِهَا الْكُبْرَى، حِينَ اجْتَمَعَتِ الْكَثِيرُ مِنَ الشَّخْصِيَّاتِ الْبَارِزَةِ فِي الْكَنِيسَةِ، لِلْبَحْثِ فِي الْقَضَايَا اللَّاهُوتِيَّةِ، وَتَوَصَّلُوا إِلَى تَعْرِيفِ رَسْمِيٍّ لِلْعَقِيدَةِ، وَقَدَّمُوهُ تَحْتَ مُسَمًّى "دِي فَيْدِي"، أَيَّ شَرْحٍ لِلْعَقِيدَةِ الرَّسْمِيَّةِ لِلْكَنِيسَةِ، وَهُوَ مَا جَعَلَهُ مُلْزِمًا لِأَيِّ عَضْوٍ فِي الْكَنِيسَةِ. وَلَمْ يَكْتَفِ هَذَانِ اللَّاهُوتِيَّانِ بِلَفْتِ انْتِبَاهِ لُوْتَرَ إِلَى الْمَجَامِعِ السَّابِقَةِ لِلْكَنِيسَةِ، لَكِنَّهُمَا نَهَضَا، وَرَدَّدَا تَصْرِيحَاتٍ بَابَوِيَّةٍ مُتَعَلِّقَةً بِالتَّبْرِيرِ. وَاسْتِطَاعَا إِظْهَارَ أَنَّ لُوْتَرَ يَخْتَلِفُ فِي الرَّأْيِ مَعَ كُلِّ مِنَ الْبَابَا وَمَجَامِعِ الْكَنِيسَةِ.

وَعِنْدَ هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ مِنَ الْمُدَاوَلَاتِ، صَارَ مَارْتِنُ لُوْتَرُ، فِي نَظَرِ بَعْضِ رِجَالِ الدِّينِ فِي الْكَنِيسَةِ، الرَّجُلَ الْأَشَدَّ تَعَجُّرًا عَلَى الْإِطْلَاقِ. وَسَأَلُوهُ: "مَنْ نَحَالُ نَفْسَكَ، إِذْ تَظُنُّ أَنَّكَ أَحْكَمُ مِنْ مَجَامِعِ الْكَنِيسَةِ، أَوْ مِنَ الْخُبْرِ الْأَعْظَمِ فِي رُومَا؟ كَيْفَ تَجْرُؤُ عَلَى تَعْلِيمِ عَقِيدَتِكَ عَنِ التَّبْرِيرِ، فِيمَا أَنْتَ فِي تَعَارُضٍ مَعَ تَعْرِيفِ الْكَنِيسَةِ الرَّسْمِيِّ لَهُ فِي الْمَاضِي؟" إِذَا، خِلَالَ هَذِهِ الْمُنَاظِرَاتِ، سُئِلَ لُوْتَرُ: "هَلْ تُعَارِضُ الْبَابَا وَمَجَامِعَ الْكَنِيسَةِ؟" وَلِصَدْمَةِ الْحَاضِرِينَ، اعْتَرَفَ لُوْتَرُ بِاخْتِلَافِهِ مَعَ بَعْضِ هَذِهِ التَّعَالِيمِ الْكَنِيسِيَّةِ، وَاعْتَرَفَ أَمَامَ الْمُجْتَمِعِينَ بِأَنَّهُ، فِي رَأْيِهِ -الَّذِي لَمْ يَبْدُ لِلْكَثِيرِينَ رَأْيًا مُتَوَاضِعًا- يُمَكِّنُ لِمَجَامِعِ الْكَنِيسَةِ أَنْ تُحْطِئَ. فَيُمْكِنُ لِلْمَجَامِعِ أَنْ تَرْتَكِبَ الْأَخْطَاءَ. وَلَيْسَتْ مَجَامِعُ الْكَنِيسَةِ فَقَطْ يُمَكِّنُ أَنْ تُحْطِئَ لَاهُوتِيًّا، بَلِ الْبَابَا نَفْسُهُ أَيْضًا قَدْ يُحْطِئُ.

حَسَنًا، عِنْدَ هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ، بِالطَّبَعِ، شَبَّهَ لُوَثْرُ بِالْمَهْرَطِقِ الْبُوْهِيَّيِّ جُونِ هَاسٍ، الَّذِي أُعْذِمَ حَرْقًا عَلَى عَمُودٍ بِسَبَبِ تَصْرِيحَاتٍ مُمَاتِيَّةٍ، قَبْلَ ذَلِكَ بِنَحْوِ قَرْنٍ. وَعِنْدَيْدِ، تَمَّ عَزْلُ لُوَثْرٍ، وَتَخْصِيصُ مُكَافَأَةٍ مَالِيَّةٍ لِمَنْ يَفْتُلُهُ، فَصَارَ رَجُلًا مَطْلُوبًا.

وَأخِيرًا، وَبِسَبَبِ انْتِشَارِ صَحْبِ شَدِيدٍ فِي أُنْحَاءِ الْعَالَمِ، أُجْرِيَتْ مُحَاوَلَةٌ لِلتَّوَصُّلِ إِلَى حَلِّ نِهَائِيٍّ. وَعَقِدَ الْمَجْمَعُ الْمَلِكِيُّ فِي فُورْمَزٍ بِالْمَانِيَا، حَيْثُ اجْتَمَعَ مَسْؤُولُونَ فِي الْكَنِيسَةِ، مَعَ مَسْؤُولِينَ فِي الدَّوْلَةِ، لِإِتَاحَةِ فُرْصَةٍ أُخِيرَةٍ لِمُنَاقَشَةِ هَذِهِ الْقَضَايَا. وَحَصَلَ لُوَثْرُ عَلَى تَأْشِيرَةٍ مُرُورٍ آمِنَةٍ، أَيَّ كَانٍ يَأْمِكَانِهِ حُضُورُ هَذِهِ الْمُنَاطَرَةِ، دُونَ خَوْفٍ مِنَ الْقَبْضِ عَلَيْهِ أَوْ قَتْلِهِ. وَبِهَذَا، رُفِعَ الْحُطْرُ عَنْهُ مُؤَقَّتًا، فَذَهَبَ إِلَى فُورْمَزٍ. وَتَعْرِفُونَ تِلْكَ اللَّحْظَةَ الْحَاسِمَةَ حِينَ دُعِيَ إِلَى التَّرَاجُعِ عَنِ تَعَالِيهِ عَنِ التَّبْرِيرِ، إِلَى آخِرِهِ.

ثُمَّ أَدَّى لُوَثْرُ بِهَذَا التَّصْرِيحِ، حِينَ قَالُوا: "أَيُّهَا الْأَخُ مَارْتِنُ، هَلْ تَتَرَاجَعُ عَنِ أَقْوَالِكَ؟" فَأَجَابَ: "مَا لَمْ يُفْنِعْنِي الْكِتَابُ الْمُقَدَّسُ أَوْ سَبَبٌ وَاضِحٌ، لَنْ أَتَرَاجَعَ عَنِ أَقْوَالِي". ثُمَّ نَطَقَ بِتِلْكَ الْكَلِمَاتِ الَّتِي أَحَدَّتْ تَأْثِيرًا كَبِيرًا عَلَى الْعَالَمِ مُنْذُ ذَلِكَ الْحِينِ: "لَأَنَّ صَمِيرِي أَسِيرُ كَلِمَةِ اللَّهِ. وَمُخَالَفَةُ صَمِيرِي لَيْسَ بِالْأَمْرِ الصَّائِبِ وَلَا الْآمِنِ. هُنَا أَقِفْ، وَلَيْسَ بِيَدِي شَيْءٌ آخَرُ، وَلِيُعَيِّنِي اللَّهُ..." إِلَى آخِرِهِ. ثُمَّ خَرَجَ لَيْلًا، وَاحْتَطَفَهُ أَصْدِقَاؤُهُ، وَذَهَبَ إِلَى قَلْعَةٍ وَارْتَبَّجَ، وَتَرَجَمَ الْكِتَابَ الْمُقَدَّسَ إِلَى الْأَلْمَانِيَّةِ.

عَلَى أَيِّ حَالٍ، فِي فُورْمَزٍ، وَفِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ الْفَارِقَةِ، تَأَسَّسَ الشِّعَارُ الثَّانِي لِلِإِصْلَاحِ. فَبِالإِضَافَةِ إِلَى "سُولَا فِيئِدِي" الَّذِي سَبَقَ أَنْ أَشْرَتْ إِلَيْهِ، أُضِيفَ شِعَارُ "سُولَا سُكْرِيْبُتُورَا". مَرَّةً أُخْرَى، كَلِمَةُ "سُولَا" تَعْنِي "وَحْدَهُ". وَنُشِيرُ كَلِمَةَ "سُكْرِيْبُتُورَا" بِوُضُوحٍ إِلَى الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ. إِذَا الشِّعَارُ هُوَ "كَذَا بِالْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ وَحْدَهُ!". وَمَا الَّذِي "بِالْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ وَحْدَهُ"؟ قَالَ لُوَثْرُ إِنَّ الْمَصْدَرَ الْمَكْتُوبَ الْوَحِيدَ فِي الْعَالَمِ الَّذِي يَبْلُغُ مُسْتَوَى مِنَ السُّلْطَةِ يُمْكِنُهُ مِنَ الْإِزَامِ صَمِيرِ الْإِنْسَانِ هُوَ الْكِتَابُ الْمُقَدَّسُ. كَانَ لُوَثْرُ يَحْتَرِّمُ بِشِدَّةٍ أَفْكَارَ، وَحِكْمَةَ، وَتَعَالِيمَ الْلاهُوتِيِّينَ الْقُدَامَى الْعُظَمَاءِ. وَقَالَ: "يُمْكِنُنَا قَطْعًا أَنْ نَتَعَلَّمَ مِنَ تَقْلِيدِ الْكَنِيسَةِ، وَأَنْ نُسْتَرَشِدَ بِمَجَامِعِ الْكَنِيسَةِ، وَيَجِبُ أَلَّا نَزْدَرِي بِقَوَانِينِ إِيْمَانِنَا وَإِقْرَارَاتِهِ". وَسَنَكُونُ بِالْفِعْلِ مُتَعَجِّزِينَ بِشَكْلِ لَا يُوصَفُ إِذَا اخْتَرَعْنَا عَقَائِدَنَا الْلاهُوتِيَّةَ، دُونَ أَدْنَى رُجُوعٍ إِلَى جُھُودِ الْمَاضِي. ثُمَّ قَالَ: "لَكِنْ بِقَدْرِ احْتِرَامِنَا لِهَذِهِ الْكِتَابَاتِ، وَبِقَدْرِ السُّلْطَةِ الثَّانَوِيَّةِ الَّتِي تَتَمَتَّعُ بِهَا لِإِدَارَةِ شُؤُونِ الْكَنِيسَةِ، وَعَظِيمِ ذَلِكَ، مَا مِنْ وَثِيقَةٍ كَتَبَهَا بَشَرٌ، أَوْ إِقْرَارِ إِيْمَانٍ، أَوْ بَيَانِ عَقِيدَةٍ، أَوْ تَصْرِيحٍ مَجْمَعِيٍّ يُمْكِنُ أَنْ يُلْزَمَ الصَّمِيرَ الشَّخْصَ الْوَحِيدَ الَّذِي يَتَمَتَّعُ بِنَوْعِ السُّلْطَةِ الَّذِي يُحَوَّلُهُ أَنْ يَقُولَ: "لِيَكُنْ كَقَوْلِي" هُوَ اللَّهُ نَفْسُهُ. وَكَلِمَةُ اللَّهِ وَحْدَهَا تَحْمِلُ هَذِهِ الْفِيْمَةَ وَالسُّلْطَةَ".

إِذْنًا، أَمَامَنَا هُنَا أَرْمَةُ سُلْطَةٍ. فَهَلْ مُنِحَتِ السُّلْطَةُ لِكِتَابٍ؟ أَمْ مُنِحَتِ السُّلْطَةُ لِلْمُؤَسَّسَةِ، أَيْ الْكَنِيسَةِ؟ كَانَتْ هَذِهِ هِيَ الْفِضِيَّةُ الشَّكْلِيَّةُ لِلإِصْلَاحِ الْبِرُوتِسْتَانْتِيّ. وَقَطْعًا، انْطَلَقَ الْجَدُلُ مِنْ هُنَا. وَرَدَّتِ الْكَنِيسَةُ الْكَاثُولِيكِيَّةُ عَلَى "سُولا سَكْرِيبتورا" بِطَرِيقَتَيْنِ. أَوَّلًا، ذَكَرَتْ لُوتِرَ وَكَالْفِنَ وَغَيْرَهُمْ مِنْ مُصْلِحِي الْقَرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ بِأَنَّ الْكَنِيسَةَ لَمْ تَكُنْ لِتَحْضُلَ عَلَى الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ لَوْلَا الْمَجَامِعُ الْكَنِيسِيَّةُ الَّتِي عَقِدَتْ فِي فِتْرَةٍ مُبَكَّرَةٍ مِنْ تَارِيخِ الْكَنِيسَةِ، وَالَّتِي حَدَدَتْ مَا هُوَ الْكِتَابُ الْمُقَدَّسُ، إِذْ رَسَخَتْ الْمَجَامِعُ الْكَنِيسِيَّةُ قَانُونِيَّةَ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ وَالْعَهْدِ الْجَدِيدِ. سَأَلْتِي مُحَاضِرَةً مُنْفَصِلَةً عَنْ هَذَا الْمَوْضُوعِ، وَكَيْفَ جُمِعَتْ قَانُونِيَّةُ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ فِعْلِيًّا عَبْرَ تَارِيخِ الْكَنِيسَةِ. لَكِنَّ حُجَّةَ رُومًا، رَدًّا عَلَى لُوتِرَ، كَانَتْ كَالتَّالِي: بِمَا أَنَّ الْكِتَابَ الْمُقَدَّسَ تَكُونُ مِنْ خِلَالِ سُلْطَةِ الْكَنِيسَةِ، فَلَا بُدَّ مِنْ أَنَّ لِلْكَنِيسَةِ إِذْنًا سُلْطَةً مُسَاوِيَةً عَلَى الْأَقْلَلِ لِسُلْطَةِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ الَّتِي كَوَّنَتْهُ، أَوْ كَمَا قَالَ الْبَعْضُ، لَهَا سُلْطَةٌ أَعْلَى مِنْ وَثَائِقِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ الْمَكْتُوبَةِ. أَتَرَوْنَ كَيْفَ تَطَوَّرَ الْأَمْرُ؟ إِذَا كَانَتْ الْكَنِيسَةُ هِيَ الْمُؤَسَّسَةُ الَّتِي أَعْلَنْتْ أَنَّ الْكِتَابَ الْمُقَدَّسَ هُوَ الْكِتَابُ الْمُقَدَّسُ، أَفَلَا يَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْكَنِيسَةَ، أَوِ الْمُؤَسَّسَةَ الَّتِي فَعَلَتْ ذَلِكَ، لَهَا سُلْطَةٌ مُسَاوِيَةٌ عَلَى الْأَقْلَلِ لِسُلْطَةِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ، أَوْ أَعْلَى مِنْهَا؟

بِالطَّبَعِ، تَفَاعَلَ كُلُّ مَنْ لُوتِرَ وَكَالْفِنَ فِي غَضَبٍ مَعَ ذَلِكَ، وَذَكَرَا سُلْطَاتِ رُومًا بِأَنَّ الْكَلِمَةَ الْفُتْحَاحِيَّةَ الَّتِي اسْتُخْدِمَتْهَا الْكَنِيسَةُ عَبْرَ التَّارِيخِ، عِنْدَمَا حَدَدَتْ مَحْتَوِيَاتِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ، هِيَ الْكَلِمَةُ اللَّاتِينِيَّةُ "رِيسِيْمُوس" (*recipemous*)، وَمَعْنَاهَا "تَقَبُّلٌ". فَحِينَ أَعْلَنْتِ الْكَنِيسَةُ قَائِمَةَ الْأَسْفَارِ الَّتِي يَجِبُ إِدْرَاجُهَا ضِمْنَ أَسْفَارِ الْعَهْدِ الْجَدِيدِ، قَالَتْ: "تَقَبُّلٌ هَذِهِ بِصِفَتِهَا أَسْفَارًا مُقَدَّسَةً". دَعَوْنِي أَعْقِدُ تَشْبِيهًا هُنَا بِطَرِيقَةِ لُوتِرَ أَوْ بِطَرِيقَةِ كَالْفِنَ. يَسْتُخْدِمُ الْعَهْدُ الْجَدِيدُ الْفِعْلَ "يَقْبَلُ" بِالْأَرْتِبَاطِ بِعِلَاقَةِ الْمُؤْمِنِ بِيَسُوعَ. فَتَنْحُنُ مَدْعُوُونَ إِلَى قَبُولِهِ. "وَأَمَّا كُلُّ الَّذِينَ قَبِلُوهُ فَأَعْظَاهُمْ سُلْطَانًا أَنْ يَصِيرُوا أَوْلَادَ اللَّهِ". حِينَ أَقْبَلَ الْمَسِيحَ رَبًّا وَمُخَلَّصًا، فَإِنَّ قَبُولِي لَهُ لَا يَمْتَحُهُ بِالتَّأَكِيدِ أَيُّ سُلْطَانٍ. فَيَسُوعُ يَتَمَتَّعُ بِذَلِكَ السُّلْطَانِ سَوَاءً قَبِلْتَهُ أَمْ رَفَضْتَهُ. فَهُوَ الرَّبُّ، سَوَاءً اعْتَرَفْتَ بِهِ رَبًّا أَمْ لَمْ اعْتَرَفْ بِهِ. أَلَيْسَ ذَلِكَ بَدِيهِيًّا؟ وَمَا ذَكَرَ مُصْلِحُو الْقَرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ الْكَنِيسَةَ بِهِ هُوَ أَنَّهُ فِي أَوَائِلِ تَارِيخِ الْكَنِيسَةِ، حِينَ اسْتُخْدِمَتْ كَلِمَةُ "رِيسِيْمُوس"، كَانَتْ الْكَنِيسَةُ فَقَطْ تَرْضُخُ فِي اتِّضَاعٍ، وَتَقْرَأُ بِخُضُوعِهَا، لِسُلْطَةِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ.

الرَّدُّ الثَّانِي عَلَى هَذَا جَاءَ فِي مُنْتَصَفِ الْقَرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ. فَبَعْدَ بَدْءِ الإِصْلَاحِ الْبِرُوتِسْتَانْتِيّ، وَاكْتِسَاحِهِ الْعَالَمَ، لَمْ تَدْخُلِ الْكَنِيسَةُ الْكَاثُولِيكِيَّةُ فِي سُبَاتٍ، أَوْ تُقَرَّرَ أَنْ تَنْحَلَّ، بَلْ انْهَمَكَتِ الْكَنِيسَةُ الْكَاثُولِيكِيَّةُ فِي تَقْدِيمِ رَدٍّ عَنِيفٍ عَلَى الْبِرُوتِسْتَانْتِيَّةِ دُعَى بِالإِصْلَاحِ الْمَعَاكِسِ. وَأَحَدُ الْأُمُورِ، بِالْمُنَاسَبَةِ، الَّتِي فَعَلَتْهَا الْكَنِيسَةُ فِي الإِصْلَاحِ الْمَعَاكِسِ، هُوَ أَنَّهَا أَخَذَتْ عَلَى مَحْمَلِ الْجِدِّ بَعْضَ الْإِنْتِقَادَاتِ الَّتِي وَجَّهَتْ ضِدَّ الْفَضَائِحِ الْأَخْلَاقِيَّةِ الْمُرَوَّعَةِ فِي الْكَنِيسَةِ. وَأُجْرِي بِالْفِعْلِ إِصْلَاحٌ أَخْلَاقِيٌّ حَقِيقِيٌّ لِلْكَنِيسَةِ الْكَاثُولِيكِيَّةِ فِي الإِصْلَاحِ الْمَعَاكِسِ. كَانَ هَذَا الإِصْلَاحُ مُهِمًّا، وَعَادَةً مَا

يُغْفَلُ عَنْهُ. لَكِنَّ، رُبَّمَا كَانَ أَهْمُ حَدِيثٍ فِي الإِصْلَاحِ المُعَاكِسِ هُوَ مَجْمَعُ مَسْكُونِيٍّ دَعَتْ رُومًا إِلَى عَقْدِهِ فِي مَكَانٍ يُدْعَى ثَرْنَتْ. وَكَانَ مَجْمَعُ ثَرْنَتْ هُوَ الرَّدُّ اللاهوتي الرَسْمِيُّ لِلْكَنِيسَةِ الكاثوليكيَّةِ عَلَى الإِصْلَاحِ البروتستانتِيٍّ. نُوقِشَتْ عِدَّةُ قَضَايَا بِعُمُقٍ وَتَفْصِيلٍ شَدِيدٍ فِي هَذَا المَجْمَعِ، وَأَهْمُهَا بِالتَّأَكِيدِ هُوَ التَّبَرُّيرُ بِالإِيمَانِ وَحْدَهُ.

لَكِنَّ حَتَّى قَبْلَ أَنْ يُنَاقِشُوا مَوْضُوعَ التَّبَرُّيرِ، الَّذِي تَمَّ فِي الجُلُوسَةِ السَّادِسَةِ، فِي الجُلُوسَةِ الرَّابِعَةِ لِمَجْمَعِ ثَرْنَتْ، نَاقَشُوا مَسْأَلَةَ السُّلْطَةِ. وَفِي هَذِهِ الجُلُوسَةِ الرَّابِعَةِ، أَوْضَحَتِ الكَنِيسَةُ الكاثوليكيَّةُ تَمَامًا - فِي مَجْمَعِ ثَرْنَتْ - أَنَّ هُنَاكَ مَصْدَرَيْنِ لِلسُّلْطَةِ الإِلَهِيَّةِ فِي العَالَمِ اليَوْمِ. لَنْ أَحُوضُ الآنَ فِي تَفَاصِيلِ هَذَيْنِ المَصْدَرَيْنِ، بَلْ سَأفْعَلُ ذَلِكَ فِي سِلْسِلَةِ مُحَاضَرَاتٍ أُخْرَى عَنِ اللاهوتِ الكاثوليكيِّ. هَذَانِ المَصْدَرَانِ هُمَا الكِتَابُ المُقَدَّسُ (و) - فِي اللَّاتِينِيَّةِ "et" وَتُنطَقُ "إِتْ" - الكِتَابُ المُقَدَّسُ (و) التَّقْلِيدُ. يُشِيرُ هَذَا إِلَى مَا نُسَمِّيهِ بِالمَصْدَرِ الثَّنَائِيِّ لِلإِعْلَانِ الإِلَهِيِّ الخَاصِّ المُكْتُوبِ. وَهُوَ يَكْمُنُ فِي الكِتَابِ المُقَدَّسِ وَفِي تَقْلِيدِ الكَنِيسَةِ.

مَا مَعْنَى ذَلِكَ؟ مَعْنَاهُ كَالآتِي: أَنَّ الكَنِيسَةَ الكاثوليكيَّةَ كَانَتْ دَائِمًا تُوقِّرُ الكِتَابَ المُقَدَّسَ بِشِدَّةٍ. لَمْ تَرَفُضِ الكَنِيسَةُ الكاثوليكيَّةُ بِأَيِّ شَكْلِ سُلْطَةَ الكِتَابِ المُقَدَّسِ. لَكِنَّ الكَنِيسَةَ الكاثوليكيَّةَ، سِوَاءَ فِي القَدِيمِ أَوْ اليَوْمِ، تَتَّبَعِي رَسْمِيًّا الرَّأْيَ القَائِلَ إِنَّ الكِتَابَ المُقَدَّسَ لَا يَقُلُ عَنِ كَوْنِهِ كَلِمَةَ اللهِ المُوحَى بِهَا، وَالمَعْصُومَةَ، إِلَى آخِرِهِ. فَهَمُّ لَمْ يُنْكَرُوا ذَلِكَ، بَلْ قَالُوا: "بِالإِضَافَةِ إِلَى ذَلِكَ المَصْدَرِ، لَدَيْنَا مَصْدَرٌ آخَرٌ مَعْصُومٌ لِلحَقِّ الإِلَهِيِّ، وَذَلِكَ المَصْدَرُ المَعْصُومُ هُوَ التَّقْلِيدُ".

وَهَذَا تَظْهَرُ المُشْكَلَةُ. مَاذَا لَوْ وُجِدَ تَضَارُبٌ بَيْنَ تَعْلِيمِ التَّقْلِيدِ وَتَعْلِيمِ الكِتَابِ المُقَدَّسِ؟ هَذَا مَا عَانَى لُوثَرُ مِنْهُ. فَقَدْ قَالَ: "أَعْرِفُ مَا يَعْلَمُهُ التَّقْلِيدُ، لَكِنِّي لَا أَرَى تَوَافُقًا بَيْنَ التَّقْلِيدِ وَمَا يَعْلَمُهُ بُولْسُ عَنِ التَّبَرُّيرِ فِي رِسَالَتِهِ إِلَى رُومِيَّةٍ". وَكَانَ رَدُّ الكَنِيسَةِ هُوَ أَنَّ وَظِيفَةَ التَّقْلِيدِ لَا تَقْتَصِرُ عَلَى كَوْنِهِ مَصْدَرًا لِمَعْلُومَاتٍ غَيْرِ مَوْجُودَةٍ فِي الكِتَابِ المُقَدَّسِ، لَكِنَّهُ يَقْدَمُ أَيْضًا التَّفْسِيرَ المَعْصُومَ لِلكِتَابِ المُقَدَّسِ. وَبِالتَّالِي، بِرَفْضِ لُوثَرِ لِلتَّقْلِيدِ - بِحَسَبِ رَأْيِ رُومًا - هُوَ يَرْفُضُ الكِتَابَ المُقَدَّسَ أَيْضًا، لِأَنَّ رُومًا تَقُولُ: "التَّقْلِيدُ وَالكِتَابُ المُقَدَّسُ مُتَّفِقَانِ". وَلَا يَزَالُ هَذَا النِّزَاعُ قَائِمًا، بِالتَّأَكِيدِ، إِلَى يَوْمِنَا هَذَا.

خِلَالَ الدَّقَائِقِ القَلِيلَةِ المُتَبَقِّيَّةِ، أودُّ وَضْعَ مَزِيدٍ مِنَ الأَسَاسَاتِ لِهَذِهِ السِّلْسِلَةِ. تَفْهَمُونَ الآنَ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ هَذَا الجَدَلُ. وَقَدْ صَرَفْتُ كُلَّ هَذَا الوَقْتِ فِي الحَدِيثِ عَنِ القَرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ لِأَنَّ هَذَا الجَدَلُ نَفْسُهُ تَقْرِيبًا دَائِرُ اليَوْمِ. فَالجَدَلُ الدَائِرُ فِي حَيَاةِ الكَنِيسَةِ هُوَ: "مَا مَصْدَرُ السُّلْطَةِ؟" هَلْ يُقَرَّرُ كُلُّ وَاحِدٍ عَنِ نَفْسِهِ؟ وَهَلْ نَقْبَلُ بِالنِّسْبَةِ الثَّقَافِيَّةِ، أَوْ النِّسْبَةِ الفَلْسَافِيَّةِ؟

في جريدة هذا الصباح، قرأت إحدى المقالات الافتتاحية بقلم تشارلي ريس، يقول فيها إننا نعيش اليوم في مجتمع يفتقر إلى الحس الأخلاقي. فهو ليس فاسد الأخلاق، بل عديم الحس الأخلاقي! فما من مقياس، أو سلطة مطلقة. وهذه هي الأزمة التي نمر بها اليوم. "هل هناك مصدر سلطة؟"

حين كنت في الجامعة، قرأت كتاباً صغيراً، لكنه كان عميقاً وفلسفياً بشدة. وعنوانه بسيط، في شكل سؤال. عنوان الكتاب "وفق أي مقياس؟" لا أدري كم فكرت في عنوان هذا الكتاب، منذ قرأته وأنا طالب جامعي. وفق أي مقياس نحدد من يقول الحق؟ أهنك مقياس من الأساس؟ ألدنا وسيلة فحص؟ أيمكن أن نعرف أي شيء معرفاً أكيدة؟ أم اختفت كل المقاييس من وسطنا؟

مجدداً، يتعلق الأمر بالسلطة. وقبل أن نتابع حديثنا عن سلطة الكتاب المقدس، أود تخصيص الدقائق القليلة الأخيرة من هذه المحاضرة لتقديم بعض التعريفات المختصرة لمعنى كلمة "سلطة".

ما معنى كلمة "سلطة"؟ دعوني أكتب هذا على السبورة. هذه السبورة ازدحمت، وأرجو أن تعذروني لأجل العبار الذي يتطير في وجوهكم. التعريف البسيط للسلطة هو "الحق في فرض واجب". الحق في فرض واجب. نحن نستخدم لغة السلطة دائماً في مجتمعنا. فنقول: "يجب أن، ينبغي أن، يلزم أن". والشخص المفكر، حين يسمع أحدهم يقول: "عليك أن تفعل هذا، أو يجب أن تفعل هذا، أو ينبغي أن تفعل ذلك"، الشخص المفكر، سيفعل في سره على الأقل: "بأي سلطان؟ لم يجب أن أفعل هذا؟ ولم قد أسمح لك بفرض إلزام علي؟ بأي سلطان تحاول أن توجهني وتحاسبني على أي تصرف أو سلوكي؟" هذا هو السؤال الأهم.

وفق أي مقياس؟ وبأي سلطان يجب عن السؤال؟ هذا ما يقع على المحك في قضية سلطة الكتاب المقدس.

الدكتور آر. سي. سبرول هو مؤسس هيئة خدمات ليجونير، وكان أحد رعاة كنيسة القديس أندرو (St. Andrews Chapel) في مدينة سانفورد بولاية فلوريدا، كما كان أول رئيس لكلية الكتاب المقدس للإصلاح (Reformation Bible College). وهو مؤلف أكثر من مائة كتاب، بما في ذلك "كلنا لاهوتيون" و"أدهشني الألم".